

أبو حيان

أعلام التفسير

أبو حيان وتفسيره: " البحر المحيط "

هو أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن عليّ بن يوسف ابن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الحَيَّاني، الشهير بأبي حَيَّان، المولود سنة 654 هـ (أربع وخمسين وستمئة من الهجرة). كان - رحمه الله - مُلماً بالقراءات صحيحها وشاذها، قرأ القرآن على الخطيب عبد الحق ابن عليّ أفراداً وجمعاً، ثم على الخطيب أبي جعفر ابن الطباع، ثم على الحافظ أبي عليّ بن أبي الأحوص بمالقة، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وإفريقية، ثم قَدِمَ الإسكندرية فقرأ القراءات على عبد النصير بن عليّ المريوطي، وبمصر على أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجي، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب. قال أبو حيان: " وعدة مَن أخذتُ عنه أربعمئة وخمسون شخصاً، وأما مَن أجازتني فكثير جداً، وقال الصفي: " لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك ".

كذلك عُرف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، كما كان على جانب كبير من المعرفة باللغة، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يُذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبي حيان اليد الطولى في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصاً المغاربة.

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتى صار من تلامذته أئمة وأشياخ في حياته، وهو الذي جَسَّرَ الناس على كتب ابن مالك ورغبتهم فيها وشرح لهم غامضها. وأما مؤلفاته فكثيرة، انتشرت في حياته وبعد وفاته في كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس بالقبول، ومن أهمها:

تفسير البحر المحيط الذي نحن بصددده الآن، وغريب القرآن في مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وله منظومة على وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز، وهي أخصر وأكثر فوائد، ولكنها لم ترزق من القبول حظ الشاطبية، هذا، وقد قيل: إن أبا حيان كان ظاهري المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعي على مذهبه، وكان عرياً من الفلسفة، بريئاً من الاعتزال والتجسيم، متمسكاً بطريقة السلف. أما وفاته فكانت بمصر سنة 745 هـ (خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة)، فرحمه الله ورضى عنه.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، إذ إن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية، فهو ابن بجديتها، وفارس حلبيتها، غير أنه - والحق يقال - قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عداها من النواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنه لا يغفل الناحية البلاغية في القرآن، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك، كل هذا على طريقة وضعها لنفسه، ومشى عليها في كتابه، ونبهنا عليها فلي مقدمته، وذلك حيث يقول: ” وترتيبى في هذا

الكتاب، أنى أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذها ومستعملها. ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلماً على جليها وخفيها، بحيث أنى لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهداً أنى لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدّم الكلام عليها، ولا في آية فُسِّرَت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تُكَلِّم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآنى، مُحِيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئاً بمقتضى الدليل وما دلّ عليه ظاهر اللفظ مرجحاً له لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه متنكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزّه القرآن عنها، مبيناً أنها مما يجب أن يُعَدَّل عنه وأنه ينبغي أن يُحْمَل على أحسن إعراب وأحسن تركيب، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يُجَوِّزه النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقّدة، ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرناها أفراداً وتركيباً بما

ذكروا فيها من علم البيان والبدیع ملخصاً، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منشور، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني، ملخصاً جملها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقى من سائر القرآن، وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى، وربما ألممت بشئ من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنببت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يُحمّلون الألفاظ وتركت أقوال الملحدين الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة، إلى هذيان افتروه على الله، وعلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وعلى ذُرِّيَّته، ويسمونه علم التأويل.. ”.

هذا.. وإن أبا حيان - رحمه الله تعالى - ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتفنيد لما قالاه في مسائل النحو على الخصوص، ولكثرة هذا التعقيب منه على كلام الزمخشري وابن عطية تجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفى سنة 749 هـ (تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة) يختصر هذا التفسير في كتاب سمّاه: ”الدُرُّ اللقيط من البحر المحيط” يكاد يقتصر فيه على مباحثه مع ابن عطية والزمخشري ورده عليهم وهذا المختصر توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر، كما أنه مطبوع على هامش البحر المحيط.

كذلك نجد الشيخ يحيى الشاوي المغربي يفرد مؤلفاً عنوانه: ”بين أبي حيان والزمخشري” يجمع فيه اعتراضات أبي حيان على الزمخشري وهو مخطوط في مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية.

وكثيراً ما يحمل أبو حيان على الزمخشري حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية (ج 2 ص 276 ص 85)، ومع ذلك نجده يشيد بالزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه. حيث يصفه بأنه أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ (ج ص 85).

هذا.. وإن أبا حيان يعتمد في أكثر نقول كتابه هذا - كما يقول - :
 ” على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخه الصالح، القدوة، الأديب، جمال الدين أبي عبد الله، محمد بن سليمان ابن حسن بن حسين المقدسي، المعروف بابن النقيب، رحمه الله. إذ هو أكبر كتاب صُنِّف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سيفرٍ أو يكاد ”.
 ونهاية القول، فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهي الناحية النحوية التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير (1).

* * *

(1) الدكتور محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، 4 / 62 - 63.